١١٦
السنة التاسعة والعشرون
صيف ٢٠٢٢م/ ١٤٤٤هـ

الكلمة

تصدر عن
منتدى الكلمة
للدراسات
والأبحاث

مجلة فصلية تعنى بشؤون الفكر الإسلامي وقضايا العصر والتجدد الحضاري

◆ «الكلمة» بعد ربع قرن: رسالة تعايش وثقافة استنهاض
◆ حاجة العرب إلى الحكم الرشيد
◆ فكرة تعارف الحضارات في الأنشطة الفكرية الجمعية
◆ نحو علم استغراب عربي إسلامي.. قراءة في المفهوم والدواعي والمداخل النظرية
◆ دور علماء التفسير واللغويين في التأسيس لنظرية النقد اللغوي وتطويرها
◆ النقد التاريخي في منطق المؤرخ.. الرؤى النظرية والمنهجية

◆ كتب:
صعود الثقافات وتحولاتها

◆ نـــدوات:
الكاثوليكية والشيعة في وجه المستقبل

نحو علم استغراب عربي إسلامي:
قراءة في المفهوم والدواعي والمداخل النظرية

الدكتور محمد الناصري*

□ مدخل

من المسائل الشائكة في عالم الأفكار في العالم الإسلامي كيفية التعرُّف على الغرب ومعرفة أنساقه الفكرية وتجربته الحضارية وخصائصه التي تميِّزه عن غيره من الكيانات الحضارية. الأمر الذي تصبح معه الدعوة إلى تأسيس علم استغراب يُمكِّن من دراسة الغرب وفهم منطلقاته وأهدافه ونظم حياته الثقافية والفكرية، على أساس علمي وعملي، ضرورة حضارية وواجب شرعي.

من المعلوم أن إرهاصات هذا العلم بدأت من فترة بعيدة في تاريخنا الحديث، إلَّا أن الصيغة النظرية للاستغراب، باعتباره الوجه الآخر النقيض للاستشراق، وجدت هذه الصيغة أسسها ومرتكزاتها المنهجية في كتاب: «مقدمة في علم الاستغراب» لحسن حنفي الصادر سنة ١٩٩١م. وقد جعل حنفي مهمة الاستغراب؛ هي فكّ عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركَّب العظمة لدى الآخر بتحويله من ذات دارس إلى موضوع مدروس،

* أستاذ الفكر الإسلامي، جامعة السلطان مولاي سليمان، المغرب، البريد الإلكتروني: mohammedennassiri@gmail.com

والقضاء على مركَّب النقص لدى الأنا، بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارس، مهمَّته القضاء على الإحساس بالنقص أمام الغرب لغة وثقافة وعلمًا ومذاهب ونظريات وآراء.

تأتي دراستنا هذه مستفيدة ممَّا طرحه حسن حنفي في «مقدمة في علم الاستغراب»، باعتبارها دعوة لتجلية مفهوم «الاستغراب» في أبعاده الدينية والحضارية والثقافية، ودعوة لمحاولة تصحيح الوضع غير المتوازن بيننا وبين الآخر/ الغرب، ودعوة لإنهاء الأشكال الجديدة للهيمنة الغربية، عَبْر قيام علم جديد يهتم بدراسة الغرب. علم يمكن من دراسة الغرب، له منطلقات ومرجعية واضحة، وله أهداف وطموحات نافعة.

غرضنا إذًا من هذه المحاولة هو أن نبيِّن دواعي الاشتغال بعلم الاستغراب، والإشارة إلى أهم المداخل النظرية الممكن أن يتأسس عليها هذا العلم. ونأتي بهذا البيان من خلال تناولنا بالدراسة والتوضيح دوافع إنشاء علم استغراب إسلامي، وذلك بعد تناولنا لمفهوم «الاستغراب» بالدراسة من خلال ما استجد على الساحة العلمية والفكرية من نقاش حول المفهوم والرؤى حوله.

□ أولًا: علم الاستغراب.. قراءة في المفهوم

من المصطلحات والمفاهيم التي لم تنل حظها من العناية بحثًا ودراسةً في فكرنا العربي والإسلامي المعاصر مفهوم «الاستغراب»، بما هو علم معرفة الغرب. فعلى الرغم من تداول مصطلح «الاستغراب»، فإن سبر معناه يثير الاستغراب؛ فقد ألفينا تعبيري «الاستشراق» و«المستشرق»، نتيجة انهمام مؤسسات متخصِّصة بهذين الحقلين في أوروبا وأميركا منذ قرنين من الزمان. في المقابل غابت الدراسات في مجالي «الاستغراب» و«المستغرب». ولعل من النادر العثور على مصطلح (oxidentalism) (الاستغراب) كمقابل لمصطلح (orientalism) (الاستشراق) في أي معجم لغوي، وفي حال وجوده فلا يشير إلى الاستغراب المتوخَّى[1].

ففي عالم المفاهيم يُمسي الكلام على مصطلح «الاستغراب» أكثر تعقيدًا. مرجع الأمر إلى فرادته وخصوصيته، وإلى حداثة دخوله مجال المداولة في الفكر العربي والإسلامي المعاصر[2]. إذ إن هناك غيابًا شبه كلي للمساعي التي تعمل على تعميق النظر في «علم الاستغراب» بما يجعل تعميق النظر يضاهي «علم الاستشراق» الغربي.

يُزكِّي هذا الرأي ويدعمه أن نصيب التأليف في «علم الاستغراب» ظلَّ هو الأقل مقارنة

(١) رضا داوري الأردكاني، في إمكانية معرفة الغرب، مجلة الاستغراب، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، العدد الأول، السنة الأولى، ١٤٣٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص٢٥٠.

(٢) محمود حيدر، لماذا الاستغراب؟ مجلة الاستغراب، المصدر نفسه، ص٧.

بغيره من العلوم والمعارف والفنون في تراثنا المدون بالعربية قديمًا وحديثًا، فحين نطالع مراجع ببليوغرافية اهتمت باستقراء وتصنيف الكتب، نجد التفسير وعلوم القرآن والحديث والفقه وعلم الكلام وغيرها، احتلت حيِّزًا واسعًا من عناوين المؤلفات المذكورة في تلك المراجع، بينما لا نعثر على مدوَّنات مستقلة تعالج البحث النظري في «علم الاستغراب» في الفترة المبكِّرة في عصر التدوين.

أما المحاولات الحديثة والمعاصرة في هذا الاتجاه، فلم تزل محدودة وضئيلة مقارنة بالمتطلبات الحضارية الملحَّة لمجتمعاتنا العربية والإسلامية التي تجتاحها أعاصير وموجات تُقوِّض بُناها التقليدية، وتسوقها نحو فوضى شاملة ومصائر مجهولة. إلى أن ألَّف حسن حنفي كتابه: «مقدمة في علم الاستغراب» الذي دشَّن أرضية تأسيس علم جديد بموازاة العلوم والمعارف الأخرى في المجال الإسلامي، ليأتي هذا العلم مواجهًا للتغريب «الذي امتد أثره ليس فقط إلى الحياة الثقافية وتصوراتها للعالم وهدَّد استقلالنا الحضاري، بل امتد إلى أساليب الحياة اليومية ونقاء اللغة ومظاهر الحياة العامة وفن العمارة»[٣].

فقد رفع حسن حنفي «علم الاستغراب» أو البحث فيه إلى مرتبة العلم الكامل، وفرض بذلك في المجال الإسلامي اختصاصًا فكريًّا موازيًّا لذلك الاختصاص الذي فرضه الغرب عندما دشَّن أعماله الاستشراقية. أما المحاولات التي تلت محاولة حنفي في هذا الاتجاه، فلم تزل هي الأخرى محدودة وضئيلة. الأمر الذي لا يسعف في تحديد مفهوم الاستغراب تحديدًا واضحًا لا لبس فيه، إلى حدِّ اعتبار الاستغراب مفهومًا مستحيلًا يحول دون تأسيس فرع بحثي تحت هذا العنوان[٤].

وقد أضحى ذلك عيبًا في نظر العديد من الباحثين الغربيين، حيث يعيب برنار لويس[٥]

---

(٣) حسن حنفي، ماذا يعني علم الاستغراب؟ بيروت: دار الهادي، ط الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م، ص ٤٢. اعتمدنا على هذه النسخة في بحثنا هذا. وإلَّا فحسن حنفي كان قد أصدر سنة ١٩٩١م بيانًا نظريًّا لعلم الاستغراب تحت عنوان: «مقدمة في علم الاستغراب»، عن الدار الفنية للنشر والتوزيع، القاهرة. وكان تصدير هذه الطبعة عبارة عن حديث: «لتتبعنَّ سُنن من كان قبلكم، باعًا بباع، وذراعًا بذراع، وشبرًا بشبر، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟». ليعلق على هذا الإهداء قائلًا: قد يعطي هذا الحديث الذي يقوم بديلًا عن الإهداء إيحاء بأنني رافض للغرب متقوقع على الذات. وهي التهمة التي تقال عادة على الاتجاه السلفي التقليدي. ولكني فقط أدعو إلى إبداع الأنا في مقابل تقليد الآخر، وإمكانية تحويل الآخر إلى موضوع للعلم بدلًا من أن يكون مصدرًا للعلم. ص ٥.

(٤) رضا داروي، م.س، ص ٢٥٥.

(٥) من أشهر المستشرقين المعاصرين بعد جاك بيرك ومكسيم رودنسون، ولد برنارد لويس في عام ١٩١٦م، وبدأ ينشر مؤلفاته عام ١٩٣٧م، ومنذ ذلك التاريخ نشر عدة مؤلفات حول العالم الإسلامي، وقد أقام في الولايات المتحدة منذ عام ١٩٧٤م، بعد أن انتقل إليها من بريطانيا، وهو متخصّص في المسألة التركية، يعتبر من كبار المختصين بتاريخ الإسلام والشعوب العربية والإسلامية من أهم مؤلفاته: «أصول

في كتابه: «الاكتشاف الإسلامي لأوروبا»[٦] على العرب والمسلمين عدم تطلُّعهم نحو معرفة الآخر، وهو الاتهام الذي حاول لويس إثباته من خلال قراءة خاصة للتاريخ الإسلامي حتى أواخر القرن الثامن عشر الميلادي[٧].

في سبيل تعريف علم «الاستغراب» ميَّز الباحث أحمد كلاته ساداتي؛ بين نوعين من الاستغراب: الاستغراب غير النقدي والاستغراب النقدي. مثل للأول بالباحثين آهيسكا من تركيا وتوكّلي طارقي من إيران. حيث عرّفَ آهيسكا الاستغراب أنّه أبعد من موضوع الاختيار من الحضارة الغربيّة، وأبعد من المقاومة أو الثورة في مواجهة الغرب، كما هو الحال في الشرق الأوسط. فالاستغراب استراتيجيًّا ونهج وتكتيكات ذات اتجاهَين خطابيّ وغير خطابيّ، يستخدمها «الشرقيّ» ردًّا على الغرب.

وبالنسبة إلى تركيا، الاستغراب طريق للعودة إلى الأصالة، التي قضت عليها عمليّة التحديث، وهو في الوقت عينه مسعًى لمواكبة التاريخ المعاصر. أمّا توكّلي طارقي -فيشير أحمد كلاته ساداتي- إلى أنه صاحب نظرة مختلفة إلى موضوع الاستغراب في إيران. يمكن وصف نظريّته بأنّها غير نقديّة كليًّا، تأتي في سياق عرض معرفة الإيرانيّين بالغرب عرضًا وصفيًّا، كما أنّه استنادًا إلى مقالة كول «الاستغراب اللامرئيّ»، وعلى مفهوم «العقلانيّة الغربيّة» لدى فيبر، تطرّق إلى تأريخ تعرّف الإيرانيّين على الغربَ منذ بداية القرن الثامن عشر الميلاديّ، وما بعده؛ معتبرًا أنّها رؤية بشكل عامّ غير نقديّة للغرب[٨].

ليخلص أحمد كلاته ساداتي إلى أن في هذا النوع من الاستغراب: ليس هنالك من منحًى خطابيّ بالنسبة إلى موضوع «الغرب» وإنّما صدًى للتوجّه الذي يجعل الغربُ فيه ذاتَه موضوعًا ذاتيًّا، لا ليسيطر على موضوعه بل ليعرِّفَه للآخرين. كما إنّه توجّه مبنيٌّ بشكل عامّ على النرجسيّة، ومسعًى لتعريف الغرب بصفته مرشدًا للآخرين، يرشدهم إلى طرق العمل. وأن الغرب هو المحور الذي تدور حوله الأمور المعرفيّة بأجمعها[٩].

على العكس من هذا التوجّه غير النقديّ، أو الضئيل نقدُه، يعرج ساداتي على

الإسماعيلية»، «عالم الإسلام»، «الإسلام والعالم العربي»، «كيف حدث الخلل؟»، «أزمة الإسلام»، «اللغة السياسية في الإسلام»، «أين الخطأ؟»...

(6) Bernard Lewis، The Muslim Discovery of Europe (London:W.W. Norton & Company / Weidenfeld and Nicolson،1982.

(٧) انظر: أحمد الشيخ، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: حوار الاستشراق، بيروت: المركز العربي للدراسات الغربية، ط الأولى، يناير ١٩٩٩م، ص٩.

(٨) انظر: أحمد كلاته ساداتي، نحن وسحر ميداس: العالم الإسلامي وعلم الاستغراب النقدي...ص ٢٢٥.

(٩) أحمد كلاته ساداتي، م.س، ص ٢٢٦.

موقف فِن (venn) من الاستغراب، يُبرز الأخير الوجهَ النقديّ للاستغراب، المبني على الأُطُر الفكريّة لميشيل فوكو، والذي كان الأساس الذي ارتكز عليه إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق. يقول فِن آخذًا في الحِسبان موضوعَي الاستعمار والرأسماليّة في تعريف الاستغراب: «إنّ الاستغراب من خلال هذه الرؤية فضاءٌ مفهوميٌّ وتاريخيّ، يؤلّف حكايته الخاصّة عن الموضوع وحكايته الخاصّة عن التاريخ، هذه الحكاية يمكن أن تصبح هدفًا لعدائيّة الحداثة، وأن تتأثّر بها على مستوى العالم، بسبب الرؤية إلى العالم بناء على المخطّط الذي وضعته الحداثة والاستعمار الأوروبي»[١٠].

يتبيَّن بوضوح من خلال تعريف فِن (venn) أنّ الاستغراب الذي يرمي إليه ليس أنموذجًا من المعرفة النقديّة للغرب، بوصفه (أي الغرب) حيِّزًا مكانيًّا مختلفًا عن الشرق، وإنّما يتضمّن نظرة نقدية إلى حدٍّ ما؛ نقد لعدوانيّة الاستعمار والحداثة. إنّ تقويم فِن للاستغراب يأتي في سياق نظرة علم معرفيّة بالنسبة إلى تشكّل الحداثة بصفتها عرقًا خاصًّا هو العلم/ القوة السلطويّة. مع ذلك، على الرغم من أنّ رؤيته مبنيّة على الأسس الفكريّة لفوكو، لكن ليس بمعنى اتخاذ موقف حيال الغرب. نوع من إثنلجة الحداثة بصفتها بِنية ناجمة عن العلم/ القوّة السلطويّة ومرتبطة بالرأسماليّة والاستعمار[١١].

إنّ هذا الخطاب ذا الرؤية النقديّة للغرب، حين يوضع على بساط البحث في العالم الإسلاميّ، يتحوّل إلى خطاب يتجاوز البنى الفوقيّة للموضوع، محاولًا دخول مستوياته التأسيسيّة والأيديولوجيّة. وكما أنّ الغربَ في الاستغراب غير النقديّ يصبح المحور الذي تدور حوله الأمور المعرفيّة بأجمعها، ففي هذه الرؤية النقديّة يعرّف الغرب بوجهه الأيديولوجيّ، المضادّ للمفاهيم الإسلاميّة، وتوضع السيطرة الغربيّة والعدوانيّة الغربيّة موضع النقد الجدّيّ، الذي لا يزال دون ريب في مرحلة تشكّله الأوّليّة.

إذا تقرّر تعريف الخطوط العريضة لهذا المذهب الاستغرابيّ أي الاستغراب النقديّ في العالم الإسلاميّ، فالفرضيّات التالية هي الأهمّ:

- الغرب موضوع يتجاوز الفكر المتعلّق بمنطقة جغرافيّة خاصّة، إنّما له مبادئه القيميّة الخاصّة.
- الغرب بنية قوليّة مناقضة ليس فقط للمفاهيم الإلٰهيّة والإسلاميّة، وإنّما أيضًا، وفي الكثير من الحالات لديها، على العكس ممّا تدّعيه، الكثير ممّا يُناقض المفاهيم الإنسانيّة.

(١٠) المصدر نفسه، ص ٢٢٧.
(١١) المصدر نفسه، ص ٢٢٧.

- الإمبرياليّة بعدٌ من أبعاد البنية الخطابيّة الغربيّة، متغلغلةٌ في مختلِف النواحي الاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة والدينيّة.
- المفاهيم الإسلاميّة أفضل من المفاهيم الغربيّة سُبُلَ حلٍّ للمسائل الإنسانيّة والاجتماعيّة، وبالأخصّ العدالة.
- لقد ابتُلِيَ العالم الإسلاميّ مؤخّرًا بنوعٍ من الانذهال السياسي والفكري، ومن الضروريّ أن يتخلّص من هذا الوضع. وممّا يحتاجه للخروج من هذا المأزق معرفة الغرب معرفةً صحيحة.

انطلاقًا مما ذكر، يمكن القول: إنّ العالم الإسلامي بحاجة إلى خطاب الاستغراب النقديّ، هذا النوع من الاستغراب يبحث عن نوع من العودة إلى الذات، ليتمكّن من الخلاص من سيطرة الغرب الفكريّة والثقافيّة والدينية(١٢).

من الواضح أن الاستغراب سيتيح للعالم الإسلامي فرصة جديدة، تمكن من معرفة الغرب وعلومه وثقافته وحضارته... وبناء على هذا يكون الاستغراب هو علم معرفة الغرب، من خلال التعرف إلى مناهجه وأبنيته الفكرية والثقافية والأيديولوجية، وإعادة قراءتها بروح نقدية عارفة.

ومن هنا يمكن كذلك تحديد كلمة «المستغرب» وهو الذي يتبحر من أهل الشرق في إحدى لغات الغرب وآدابها وحضارتها(١٣). مع القدرة على إدخال ذلك في منظومتنا الفكرية، فالمستغرب الحقيقي هو ذلك الشخص القادر على إدخال ما عرفه على الغرب في منظومتنا الفكرية، فالاستغراب لا يولد بكتابة مقالة حول الثورة الفرنسية، أو ترجمة عمل أدبي أو فلسفي، لأن الشرط الأساس لتحققه يتمثَّل في القدرة على التغلغل في فكر الغرب وفنه وتاريخه وترسيخ الأقدام فيها(١٤).

وقد تأتي مادة مشابهة للاستغراب من داخل الحضارة الأوروبية ذاتها خاصة في الآونة الأخيرة عندما بدأ الوعي الأوروبي يُؤرِّخ لذاته، يراجع نفسه، وينقد مساره، ويكشف عن مصادره التي طالما ضرب حولها مؤامرة صمت، يعترف بقلقه وتوتُّره، ويُعبِّر عن حيرته المستمرة بين صورية فارغة ومادية غليظة حتى انتهى به الأمر إلى النسبية والشك في كل شيء، وإلى تكافؤ الأدلة والعدمية.

---

(١٢) المصدر نفسه، ص ٢٢٩.

(١٣) أحمد سمايلوفيتش، فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر، القاهرة: دار الفكر العربي، ط الثانية، ١٤١٨ هـ/ ١٩٩٨م ص ٣٥-٣٨.

(١٤) رضا داوري الأردكاني، م.س، ص٢٥٧.

هذه المادة التي يأتي بها الوعي الأوروبي لذاته كنوع من النقد الذاتي واضعًا نفسه في مرآة نفسه تختلف عن مادة الاستغراب التي يتم فيها رؤية الغرب من منظور اللاغرب، ورؤية الآخر من منظور الأنا. هذه المادة الثانية مادة أولى وليست مادة جاهزة، نتيجة لوصف الأنا للآخر وليس وصف الآخر لنفسه تنقلها الأنا عنه، مادة من جهد الأنا وإبداعه وليست من إفراز الآخر. يدخل في ذلك كتابات اشبنجلر، وهوسرل، وشيلر، وبرجسون، وتوينبي.. وغيرهم من الفلاسفة المعاصرين.

مادة الاستغراب محلية صرفة من صنع الأنا وتنظيرها وتحديدها لعلاقتها بالآخر وجدلها معه وليست من نقد الآخر لنفسه، ثم تقلّده الأنا وتستعير نقده لنفسه باعتباره نقدها ومن ثم تقلّد الأنا حتى وهي ترغب في التحرُّر، وكأن التقليد أصبح في روحها، تتوهَّم الحياة وهي تموت بالتفاف الآخر من جديد حول عنقها[١٥]. ومن ثَمَّ فلا يمكن لمشروع الاستغراب أن يتحقَّق إلَّا بالتحرُّر من الغرب عبر التحرُّر التاريخي من عالمه والخروج منه. وهذا لا يتم إلَّا من خلال إدراك ماهية الغرب واستيعاب أصوله ومبادئه.

□ ثانيًا: علم الاستغراب.. قراءة في الدواعي والأهداف

في دوافع تأسيس علم الاستغراب

لعل المطالعة الاستقرائية للكتابات التي تعاطت مع فكر الغرب توقفنا على اتجاهات ثلاثة انطلقت في تعاطيها مع المنجز الغربي بأبعاده المختلفة من إشكالية مزمنة، هي أزمة الهوية وعقدة الشعور بالنقص. وفي اعتقادنا، إن هذه الاتجاهات تمثّل في الحقيقة مواقف الخطاب العربي والإسلامي من الآخر/ الغرب، وكل موقف منها يعتبر دافعًا لإنشاء علم استغراب إسلامي.

الاتجاه الأول: ينظر أصحاب هذا الاتجاه إلى الغرب ككل غير قابل للتفكيك والتجزئة، فهو هوية واحدة موحَّدة، يمثّل عنوان الغازي المستعمر، الذي تجب مجافاته والقطيعة معه، والتعامل مع عطائه بحذر الشعوب المقهورة.

وعليه فإن من أهم العناصر الدافعة لتأسيس علم الاستغراب هو السعي إلى إنشاء سياق آخر من التواصل الحضاري مع الغرب تنتفي فيه مفاهيم الإقصاء والغلبة والتبعية والإكراه.

الاتجاه الثاني: ينظر أصحاب هذا الاتجاه إلى رؤية معاكسة للاتجاه الأول وإن اتَّفقوا في الانطلاق من أزمة، حيث يذهب أنصار هذا الاتجاه إلى ضرورة التعامل مع هوية الغرب

(١٥) حسن حنفي، م.س، ص ٤٠-٤١.

الواحدة، بوصفها كلًّا غير قابل للتجزئة والتفكيك، ولكنه المنقذ المستنير الذي يجب اتِّباعه حذو القذَّة بالقذَّة. فحتى نواكب حياة البشر -كما يقول هؤلاء- لا بد لنا من الأخذ بكل إنجازات الغرب ومنتجه مأخذ الواله لفضلى الحياة.

وإلى ذلك؛ فإن هذا الموقف بدوره يعتبر دافعًا إلى تأسيس علم الاستغراب، وذلك لجلاء أن لمعارف الغرب حواضن في المجتمعات العربية والإسلامية تتلقَّى تلك المعارف وترعاها، ثم لتُعيد إنتاجها على النحو الذي يريده لها العقل الغربي نفسه. بيان ذلك أن هذا الأخير، يجد لدى نخب تاريخية واسعة في مجتمعاتنا من يتماهى معه في خطبته ومنطقه، أو أن يمتثَّل إلى معارفه المستحدثة.

هذا حال من جاز أن ينظر إليهم وعلى نصاب «الاستغراب السلبي»، الذي هو ناتج تفاعل مركَّب بين دهشة العربي المسلم بحداثة الغرب ومنجزاتها من جهة، وطريقة تعامله معها من جهة أخرى. فبنتيجة هذا التركيب على الإجمال، بدا هذا «المستغرب» في حالة استلاب وتبعية لمنظومة الغرب وخصوصياتها، وتاليًا كامتداد محلي لها. أما حاصل الأمر، فكان أدنى إلى استيطان معرفي لا يفتأ يستعيد أسئلة الغرب وأجوبته على نحو الإذعان والتسليم[١٦].

الاتجاه الثالث: انطلق أصحابه من أزمة الهوية نفسها التي صدر منها الاتجاهان الآخران، ولكنه، وهو اتجاه احتل مساحة واسعة في العالم الإسلامي؛ دعا إلى تجزئة عطاء الغرب ومنجزه، فلم ينظر للغرب ككل لا يقبل التجزئة، وإنما دعا إلى الأخذ بمنجزاته العلمية والتكنولوجية والحياتية ونبذ تجربته السياسية والاجتماعية والقيمية. وبتعبير آخر: إن أنصار هذا الاتجاه التفكيكي دعوا إلى نبذ كل ما يرتبط بمقولة العقل العملي وما ينبغي وما لا ينبغي فعله من منتج الغرب.

وهكذا نجد أتباع هذه الاتجاه يُقرِّرون أن الإنسان فيما يرتبط بمقولات العقل العلمي لا بد أن ينبذ فكر الغرب وهويته ومنتجه، أما فيما سوى ذلك من العلوم ومنجزات وتقنيات فلا ضير من الأخذ بها وإقامة الحياة عليها.

من الواضح لنا ونحن نستعرض هذا الاتجاه المفكك بين منتج ومنتج لواعية واحدة، أنه -أيضًا- من العناصر الدافعة لتأسيس علم استغراب إسلامي؛ لأنه لا يصدر عن تأسيس واضح ومنهج مؤسّس، وإنما هاجس الهوية والعاطفة، فضلًا عن الغيرة الدينية والأخلاقية -وهي محمودة على كل حال- تلعب دورًا كبيرًا في هذا التعاطي التفكيكي مع منجز الغرب[١٧].

إن المناهج المتقدِّمة في التعاطي مع فكر الغرب، راجعة بالأساس إلى عدم وضوح

(١٦) محمود حيدر، لماذا الاستغراب؟ م.س، ص١٠.
(١٧) مازن المطوري، مدخل إلى منهج لنقد الغرب، مجلة الاستغراب، م.س، ص ١٢١.

العلاقة بين الأنا والآخر، بين تراثنا القديم وتراث الغرب. وعدم وضوح هذه العلاقة دافع أساس لتأسيس علم استغراب إسلامي؛ ذلك أن العلاقة الملتبسة بين التراثين، تسبَّبت في أخطاء بالنسبة لكل منهما. فبالنسبة للتراث القديم نقوم بالأخطاء الثلاثة التالية:

١- ننزع أنفسنا من بيئتنا الثقافية إما إحساسًا بالعار أمامها، أو خجلًا منها، أو جهلًا بها، أو تقليدًا للغير، أو انبهارًا به.

٢- نزرع أنفسنا في بيئة ثقافية أخرى، ندخل في معاركها ونحن لسنا أطرافًا فيها، ومن ثَمَّ نُحوِّل أنفسنا وكلاء حضاريين للغرب.

٣- نهرب من الواقع ذاته فلا نرى أوضاعه ولا أزماته، ولا ندخل في تحدِّياته.

ونقوم بالنسبة لتراث الغرب بأخطاء ثلاثة كذلك:

١- إخراج الثقافة الغربية من بيئتها المحلية وظروفها التاريخية، وجعل أنفسنا أطرافًا في معاركها.

٢- إعطاء الثقافة الغربية نوعًا من الإطلاق والتعميم ليس لها، ونشرها خارج حدودها، ومن ثَمَّ تحقيق مآرب المركز باعتبارها ثقافة مهيمنة وموجِّهة للأطراف.

٣- محاربة الثقافات المحلية في حالة مقاومتها للثقافة الوافدة، ومن ثَمَّ إحداث الصراع بين الوافد والموروث، وشقّ الثقافة الوطنية، والوقوع في الازدواجية الثقافية[١٨].

ومن منطلق السعي لتجاوز هذه الأخطاء في علاقة الأنا بالآخر، يمكن القبول بهذا العلم؛ سعيًا إلى فهم الآخر فهمًا مباشرًا، من أجل التعامل معه تعاملًا يعود نفعه علينا نحن مباشرة وبالدرجة الأولى، ثم يعود نفعه على المستهدف منه وبالدرجة الثانية، إذا كان لهذا الأمر درجات[١٩]. إن في محاولة تجاوز حالة اللافهم المميّزة لعلاقتنا بالآخر، مسوِّغ منطقي لتأسيس علم الاستغراب.

ب- علم الاستغراب.. قراءة في الأهداف والمهمات

في مقارنة الاستغراب بالاستشراق يُلخِّص حسن حنفي مهمَّة الاستغراب بأنه إذا كان الاستشراق هو رؤية الأنا من منظور آخر، فإن الاستغراب محاولة معرفية ترمي إلى فكِّ العقد التاريخية المزدوجة بين الأنا والآخر، والجدل بين مركَّب النقص عند الأنا ومركَّب العظمة عند الآخر. فمنذ الاستشراق القديم الذي نشأ واكتمل في عنفوان المدِّ الاستعماري الأوروبي لجمع أكبر قدر ممكن من المعلومات عند الشعوب المستعمرة، أخذ الغرب دور

(١٨) حسن حنفي، م.س، ص ١٠١-١٠٢.

(١٩) علي ابراهيم النملة، الاستغراب: المنهج في فهمنا الغرب، كتاب المجلة العربية، الرياض، العدد ٢٢٣، ط الأولى، ١٤٣٦هـ، ص٢٥.

الأنا فأصبح ذاتًا واعتبر اللاغرب هو الآخر فأصبح موضوعًا، فالاستشراق القديم رؤية الأنا الأوروبي للآخر غير الأوروبي علاقة الذات الدارسة بالموضوع المدروس.

وكان نتيجة ذلك أن نشأ لدى الأنا الأوروبي مركَّب العظمة من كونه ذاتًا دارسًا، كما نشأ لدى الآخر اللاأوروبي مركَّب نقص من كونه موضوعًا مدروسًا. أما في الاستغراب فقد أصبح الأنا الأوروبي الدارس بالأمس هو الموضوع المدروس اليوم، كما أصبح الآخر الأوروبي المدروس بالأمس هو الذات الدارس اليوم.

إن مهمّة الاستغراب -بحسب حنفي- هي فكُّ عقدة النقص التاريخية في علاقة الأنا بالآخر، والقضاء على مركَّب العظمة لذا الآخر الغربي، بتحويله من موضوع مدروس إلى ذات دارسة، مهمّته القضاء على مركَّب النقص في عالمنا أمام الغرب لغةً وثقافةً وعلمًا، مذاهب ونظريات وآراء، ممَّا يخلق فيهم إحساسًا بالدونيَّة.

وإذا كان الاستشراق قد وقع في التحيُّز المقصود إلى درجة سوء النيَّة الإرادية والأهداف غير المعلنة فإن الاستغراب يُعبِّر قدرة الأنا باعتبارها شعور محايد على رؤية الآخر ودراسته وتحويله إلى موضوع، وهو الذي طالما كان ذاتًا يُحوِّل كل آخر إلى موضوع. لكن الفرق هذه المرَّة هو أن الاستغراب يقوم على أنا محايد لا يبغي السيطرة، وإن كان يبغي التحرُّر من هيمنة الغرب والخلاص من أثر ثقافته وتشوُّهاتها في عالمنا.

إن الاستغراب لا يهدف إلى تدمير الثقافة الغربية، وإنما يهدف إلى تحليلها والتعرُّف إلى مكوِّناتها الأساسية وردّ عناصرها إلى منبعها ودراستها بعمق، بغية خلق مناعة ومقاومة وحساسية من تشوُّهاتها وبعض عناصرها التدميرية، ومن ثَمَّ تحصين الهوية الحضارية لأمتنا من العناصر القاتلة في ثقافة الآخر، وحماية مجتمعنا من النزاعات التدميرية في فكر الآخر وقيمه وتقاليده الجديدة. لا يريد تشويه ثقافات الآخر، وإن أراد معرفة تكوينها وبنيتها. فأنا الاستغراب أكثر نزاهةً وموضوعيَّة وحيادًا من أنا الاستشراق.

مهمَّة علم الاستغراب هي إعادة الشعور اللاغربي إلى وضعه الطبيعي، والقضاء على اغترابه، وإعادة ربطه بجذوره القديمة، وإعادة توجيهه إلى واقعه الخاص، من أجل التحليل المباشر له، وأخذ موقف بالنسبة لهذه الحضارة التي يظنها الجميع مصدر كل علم.

مهمَّة علم الاستغراب إعادة التوازن للثقافة الإنسانية بدل هذه الكفَّة الراجحة للوعي الأوروبي. فطالما أن الكفَّتين غير متعادلتين سيظل الوعي الأوروبي هو الذي يمدُّ الثقافة الإنسانية بنتاجه الفكري والعلمي وكأنه هو النمط الوحيد للإنتاج[٢٠].

(٢٠) حسن حنفي، م.س، ص٤٩-٧٩.

هذه ليست طوباوية يقع فيها علم الاستغراب، فمن الممكن تحقيق كل هذه الأهداف، والوقت حان لذلك، إذا تمَّ الوعي بإمكانات الذات، وحسن التخطيط وعدم ترك دراسة الغرب للصدفة أو العشوائية، ولا بد أن تكون هذه الأهداف مسنودة بقرارات واعية ومقصودة من قبل دول عالمنا العربي والإسلامي، وأن تكون هذه القرارات مصحوبة بإنشاء وتجهيز مراكز ومعاهد ومكتبات للدراسات الغربية، وأن يتم تكوين جيل جديد من المستغربين العرب والمسلمين للإسهام في دراسة المجتمعات والتاريخ والثقافات الغربية[٢١]. فالظروف الحالية التي يمرُّ بها العالم العربي تُحتِّم عليه أن يفهم بدقَّة هذه الحضارة الغربية التي خضع ويخضع لها في نواحٍ عديدة من حياته، فربما يدفعه هذا الفهم الجيد نحو سلوك أفضل[٢٢].

إن حسن حنفي يُسوِّغ رؤية نظرية أولية لعلم دشَّنه طائفة من المفكرين المسلمين منذ الأفغاني مرورًا بمحمد إقبال ومالك بن نبي والشهيد محمد باقر الصدر وغيرهم من العلماء الذين أنجزوا دراسات مميَّزة في نقد الاتجاهات الحديثة في الفكر الأوروبي. لكن حسن حنفي حاول أن يستأنف تلك الجهود للارتقاء بها إلى مصافِّ العلم الخاص بدراسة المعرفة الغربية، بدءًا بلحظة انبثاقها حتى مآلها راهنًا.

وقد أثارت الدعوة لتأسيس علم الاستغراب بعض المثقفين فكتبوا حولها مراجعات تقويمية، كشفت عن روح التفاؤل التي قد ترقى إلى درجة الحلم في هذه الدعوة، كما أشاروا إلى أن خطاب حنفي خطاب أيديولوجي مشبع بنزعة تعبوية لمناهضة الغرب وحضارته.

وبغض النظر عمَّا تنطوي عليه تلك التقويمات من خطأ وصواب، تظل الحاجة إلى تأسيس «علم الاستغراب» ملحَّة في عالمنا الذي ما فتئ يعيد إنتاج أدوات التبعية للغرب في كل شيء لا سيما في عصر العولمة ومطامع الإنسان الغربي في طمس ثقافة الآخر وتعميم ثقافته في العالم بأسره.

ومن المعلوم أن أية محاولة لتدوين علم جديد يتطلَّب موهبة عقلية، ومثابرة، وتأمُّل معمَّق في الأسس المفترضة لهذا العلم، ومصدره وهيكله الأولي. كذلك ينبغي أن تصطف أقلام عديدة لتقويم تلك الفروض المقترحة وتحليل المفهومات والأفكار الأساسية، واختبار أدوات الإجرائية... وغير ذلك[٢٣].

---

(٢١) أحمد الشيخ، م.س، حواره مع سميح فرسون، الاستغراب نقد للغرب، ص٣١٩.

(٢٢) أحمد الشيخ، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب، المثقفون العرب والغرب، بيروت: المركز العربي للدراسات الغربية، ط الأولى، يناير ٢٠٠٠م، حواره مع محمد النيرب: مع استغراب بدون استشراق. ص٢٤٧ - ٢٥٣.

(٢٣) عبد الجبار الرفاعي، نحن والغرب: جدل الصراع والتعايش، بيروت: دار الهادي، ط الأولى، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص٩٢-٩٤.

□ ثالثًا: مداخل نظرية مؤسسة لعلم الاستغراب

أ- علم الاستغراب: من أجل تجاوز النظرة الضيقة للآخر التي كرَّسها الاستشراق

يتَّضح للمتأمِّل سوء فهم الآخر للهوية العربية والإسلامية، حين يضعها ضمن إطار ثابت، يشمل الحاضر والماضي معًا، لذلك افتقد كثير من المستشرقين الموضوعية، حين وظَّف بعضهم دراساته لخدمة الفكر الاستعماري، فبدأ يعمل على إضعاف أهم روابط الهوية في العالم العربي والإسلامي: اللغة والدين(٢٤).

لهذا انتقد إدوارد سعيد افتقاد الباحث الغربي، في أثناء دراسته ثقافة الآخر، شرطين من شروط المعرفة العلمية، الأول: الإحساس بالمسؤولية اتجاه الثقافة أو الشعب موضوع الدراسة، والثاني: الموضوعية، فهو يتأثَّر بما هو غير علمي كالعواطف والعادات والتقاليد والقيم التي تربَّى عليها، لهذا لا يمكنه أن يقارب دراسته للشرق أو للإسلام إلَّا من موقع الهيمنة والإقصاء، فيسهم من دون وعي منه في تعزيز ثقافة الكراهية، وينسى واجبه العلمي والأخلاقي في الحيادية(٢٥).

وهنا يمكننا الادِّعاء بأن النزوع نحو الإقصاء والإلغاء في علاقة الغرب بالآخر -على الأرجح- تضرب بجذورها العميقة في (نزعة التمركز الغربي حول الذات) والتي سايرت الغرب وألهمته كثيرًا من رؤاه، ومواقفه منذ بدأ رحلة صعوده الحضاري الكبير في العصر الحديث الذي قام على ظاهرة المركزية الأوروبية كأساس وليس كاستثناء، حيث بلغ الوجود الاستراتيجي للغرب أفق العالمية وظلَّ متناميًا بعد ذلك وصانعًا للنظام العالمي الواسع للحداثة.

ومنذ هذا التاريخ لم يعد ثمَّة اختلاف لدى الوعي المتمركز على التمييز الوجودي بين الغرب وبقية العالم، فالحدود الجغرافية والثقافية الفاصلة بين الغرب وهوامشه غير الغربية تبلغ من حدّة الإحساس بها وتصوُّرها في ثقافة الغرب درجة أننا يمكن أن نعتبر هذه الحدود مطلقة. ويرافق سيادة هذا التمييز ما يُسمِّيه يوهانسن فابيان (نكران التعاصر) في الزمن وانقطاع جذري على صعيد الفضاء الإنساني. إذ من ناحية تنامت تدريجيًّا حدّة النرجسية الأوروبية لتشكّل أيديولوجيا متكاملة ادَّعت -عبر توليفات نظرية وتحيُّزات علمية تبلغ حدَّ التزييف- سمو الغرب عرقيًّا ودينيًّا وفكريًّا، بل بوحدته واستمراريته منذ بداية تاريخه بالمعجزة الفلسفية اليونانية وحتى الآن متمتعًا بالطهر المعرفي والنقاء العرقي. ومن ناحية أخرى تنامي حدة الروح الإقصائية للغرب، فلم يتوقَّف عند حدود إنتاج صورة نقية لذاته، بل تجاوزها إلى حدود تركيب

(٢٤) ماجدة حمود، إشكالية الأنا والآخر: نماذج روائية عربية، الكويت: عالم المعرفة، عدد ٣٩٨، مارس ٢٠١٣م، ص٢٠.

(٢٥) المصدر نفسه، ص٢٠.

صورة مشوَّهة للآخر، إذ نظر إلى العالم خارج نطاق أوروبا بوصفه سديميًا غامضًا، وبدائيًّا وخاضعًا لعلاقات اجتماعية تحتاج إلى تهشيم قبل أن يتم نشر الفضيلة والأخلاق والعقل فيه.

ويقوم خطاب هيجل كدليل على هذه الرؤية المشوهة للآخر، إذ يرى الأفريقيين والآسيويين أشد التصاقًا بالدونيَّة التي تميِّزهم في كل شيء عن الغربيين، أما السكان الأمريكيون الجنوبيون فقد اعتبر هشاشة التكوين الطبيعي لبلادهم كافية للترفُّع عن الحديث عنهم. وعلى هذا النحو جرى تثبيت نظرة دونيَّة للآخر، سرعان ما أصبحت فلسفة لها بُعد اجتماعي وسلوكي، أدَّت إلى انقسام في الفكر الإنساني، فثمَّة عرق مُنِحَ التفوُّق والرِّفعة والسمو، واحتكر الحقيقة بكل أبعادها، وثمَّة عرق آخر اختُزل إلى الحضيض والدونيَّة التي تجعله يعيش دائمًا إحساسًا بالمديونية الأخلاقية والثقافية والدينية للآخر، وهو ما أفضى إلى مزيد من اليأس والخذلان، وإفراغ الأنساق الثقافية من مضامينها، والإجهاز عليها وغزوها بمضامين أنتجتها ظروف تاريخية مختلفة، وهي لذلك لا تحقّق نهضة هذا الآخر ولا تقدّمه وإن كانت تزيد من تغريبه واغترابه[٢٦].

ثمَّة مكوِّن آخر للهوية الغربية بالإضافة إلى التقسيم العنصري الناتج عن المركزية الغربية، هو فكرة العدو، ويبدو أن الشرق الإسلامي هو أكثر الأعداء حضورًا في وعي الغرب في الماضي والحاضر، لهذا مُسخت صورته إلى مجموعة من الثوابت التي تناقض الثقافة الحديثة، ممَّا يُعلي شأن الأنا الغربية على حساب الآخر الشرقي الذي لا يملك سوى ثوب التهديد والإرهاب، فهو ضئيل المواهب قياسًا للفاتح الخارجي المتحضِّر، الذي لم يُقدِّم -كما يرى إدوارد سعيد- سوى البديلين التاليين «فلتخدم أو فلتُدمَّر»، لهذا كانت أسوأ هبات الإمبريالية في نظره أنه دفعت الناس إلى الاعتقاد بأنهم بيض أو سود أو غربيون أو شرقيون فقط[٢٧].

وعليه فالأرضية التي يتوجَّب أن يتأسَّس عليها الاستغراب الإسلامي، ينبغي أن تكون مختلفة عن أرضية الاستشراق الغربي النازعة نحو الهيمنة والإقصاء. ففي الوقت الراهن يتعيَّن على خطاب الاستغراب الإسلامي إلى أن يتميَّز في أسسه ومنطلقاته عن الفلسفات المؤسسة للاستشراق، وإلى طرح خطاب مختلف مستوعب ومنفتح في آنٍ على كل الأنساق الحضارية، خطاب ينطلق من قيم الذات لاستيعاب وتجاوز العلم والفكر الغربيين الموجودين في الاستشراق.

ب- مداخل نظرية مؤسسة لعلم الاستغراب الإسلامي

هل الهدف من علم الاستغراب الإسلامي دراسة الغرب بهدف تشويه ثقافته

---

(٢٦) صلاح سالم، العرب والغرب بين نظريتي المؤامرة وصراع الحضارات، مجلة التسامح، سلطنة عمان: وزارة الأوقاف، العدد الثلاثون ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص٤٤٤-٤٤٥م.

(٢٧) ماجدة حمود، م.س، ص ٢٢.

والسخرية من عادات وتقاليد الغربيين واحتقار نظرتهم للحياة والوجود؟ هل علم الاستغراب ردّ فعل ضد الاستشراق؟ بتعبير آخر هل نواجه الغرب بنفس أسلوب الإقصاء والتهميش والاحتقار الذي تعامل به معنا؟

نبادر بالإجابة متبنِّين قول كرم خلة: «إننا لدينا وجهة نظر إنسانية، نحن لا نملك هذا التفكير العنصري الموجود في الغرب، العنصرية مرتبطة بالإمبريالية، مرتبطة بالنظرة من أعلى إلى أسفل... الباحث الغربي عندما يدرس مصر أو السعودية فإنه يشعر أنه أمام مجتمع بدائي، ويدرس هذا المجتمع من أعلى إلى أسفل، وهذه النظرة العنصرية لم تمت بعد... لكننا لا ندعو إلى مجابهتها بعنصرية مضادَّة، بل بموقف إنساني»[٢٨].

كما يؤكِّد أحمد الشيخ أننا في المحيط العربي والإسلامي نتبنَّى تراثًا من القيم الأخلاقية، تُبعدنا بمسافة كبيرة عن تشويه الآخرين والاعتداء عليهم أو (احتلالهم) أو الهيمنة عليهم، حتى لو كانت لدينا القدرة المادية والتقانية والإرادة لذلك، كما حدث من الغرب تجاه الشرق في الماضي القريب[٢٩].

إننا في علم الاستغراب الإسلامي نستطيع حل إشكالية «الأنا» و«الآخر» حين نرتقي بإنسانية الإنسان، فنتبنَّى قيمًا حضارية أنجزتها الأمم جميعًا، ممَّا يؤسِّس لمد جسور التفاهم بين البشر بعيدًا عن الهويات القاتلة. فالقيم الإنسانية المشتركة والتي تأتي عندنا باعتبارها؛ مجموعة القيم الأساسية التي يمكن أن توحِّد بين الناس من مختلف الخلفيات الثقافية والسياسية والدينية والفلسفية. حيث إن ثمَّة مجموعة قيم إنسانية مشتركة بين كل الفضاءات الثقافية والدينية في العالم، ينبغي استثمارها والتركيز عليها لتكريس وحدة الإنسانية ووحدة «الجوهر الإنساني». إن قيمًا مثل: العدل، المساواة، الحرية، التعاون، المحبة، التواضع، رفض الظلم، رفض العنف... هي جزء من إنسانية كل إنسان. ولذلك فالجوهر الإنساني حاضر في كل التقاليد الثقافية والدينية لكل الشعوب عبر التاريخ الطويل للإنسانية[٣٠].

إن الاستغراب الإسلامي يستند إلى منهج معرفي، تحكمه قيم العدل والمساواة والحرية، وتحوطه أخلاقيات التعاون والمحبة والتواضع والاحترام... وهذه القيم مترتِّبة

(٢٨) أحمد الشيخ، من نقد الاستشراق إلى نقد الاستغراب: المثقفون العرب والغرب، م.س، حواره مع كرم خلة: حذار من المركزية الشرقية، ص ١٥٥-١٦٧.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٢٨٨.

(٣٠) في كتابه الجديد: النور يأتي من الغرب، قام داريوش شايغان بمقارنة بين مجموعة من التقاليد الصوفية من مختلف الفضاءات الثقافية: المعلم إيكار من القرن الثالث عشر، ابن عربي من القرن الثاني عشر، الهندي أمكاراشاريا من القرن الرابع، والصينيان شوانغ تسو ولاوتسو قبل التاريخ الميلادي، وتوصَّل إلى وجود انسجام وتطابق بنيوي فيما يخص رؤاهم للإنسان والعالم وذلك على الرغم من التباعد الزمني والمكاني فيما بينهم.

-جميعها- على قيمة كبرى ومتفرِّدة هي «التوحيد». فالمنطلق الأساسي الأول المستوعب لخطاب الاستغراب الإسلامي، الأصل فيه أن ينبع من أصل عقيدي وإيماني هو «التوحيد»؛ «وهذا المنطلق كما يدل عليه مصطلحه، وتنطق به كلمة الشهادة، ويوضِّحه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، يقيم العقل المسلم والفكر المسلم، والمنهجية الإسلامية على فرضية الحق أساسًا ومدارًا ومآلًا لكل الكون والكائنات»[٣١].

فمما «لا شك فيه أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الإسلام، وأن جوهر الإسلام هو التوحيد، والتوحيد بالعبارة البسيطة المتوارثة هو الاعتقاد والشهادة -أن لا إله إلَّا الله- وهذا القول بصيغة النفي الموجز أشد الإيجاز، يحمل أعظم المعاني وأغناها في الإسلام قاطبة، وقد تتكثَّف في جملة واحدة ثقافة كاملة أو حضارة كاملة أو تاريخ بأجمعه. وهذا بالتأكيد هو ما نجده في الكلمة أو الشهادة في الإسلام، فكل ما في الإسلام من تنوُّع وغنى وتاريخ وثقافة ومعرفة وحكمة وحضارة يجتمع في هذه الجملة البالغة القصر لا إله إلَّا الله»[٣٢].

وعليه فالتوحيد بما هو إفراد لله بالوحدانية «هو سبيل هوية الأمة ومن ثَمَّ توحيد موقفها الفكري في العقائد والشرائع، في الثوابت والأصول والأركان... وتبعًا لذلك وانطلاقًا منه السبيل لتوحيد موقفها الفلسفي والمعرفي في خضم الصراعات والتحديات الحضارية التي أحاطت وتحيط بها، منذ ظهور الإسلام وحتى عصرنا الراهن... وأيضًا السبيل لتوحيد موقفها العملي في معركة النهضة الحضارية التي هي طوق نجاتها من التخلُّف الموروث، والذي يكرّسه التغريب بالمسخ والنسخ والتشويه لهويتها الإسلامية...»[٣٣].

كما «يفيد التوحيد أن المؤمنين هم في الحقيقة جماعة أخوة واحدة... والأمة نظام كوني يشمل غير المؤمنين من الناس، وهو نظام سلام، سلام إسلامي، منفتح أبدًا على جميع الأفراد والجماعات الذين يؤمنون بمبدأ الإقناع والاقتناع بالحقيقة ويبحثون عن نظام عالمي تكون فيه الأفكار والبضائع والثروات والناس أحرارًا في الحركة والانتقال»[٣٤]. ذلك أن رجل التوحيد «في علاقاته بغيره يتحرَّك وينفعل معهم... لكي يحدث في غيره إيجابيًّا، فيقلب أوضاع الغير

---

(٣١) عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، المعهد العالمي الفكر الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ/ ١٩٩١م، ص١٢٧.

(٣٢) إسماعيل راجي الفاروقي، أطلس الحضارة الإسلامية، ترجمة: عبد الواحد لؤلؤة، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط الأولى، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م، ص ١٣١.

(٣٣) محمد عمارة، معالم المنهج الإسلامي، الأزهر الشريف، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، الرباط: دار الأمان، د.ت، ص ٣٣.

(٣٤) المصدر نفسه، ص١٤٤-١٤٥.

من جوع إلى شبع، ومن جهل إلى علم، ومن عدم أمن إلى طمأنينة، ومن بشاعة إلى جمال»[٣٥]، في نكران تام للذات وابتعاد كامل عن كل أنانية بغيضة أو استعلاء مقيت؛ لأن نفسه معدلة بالتوحيد، الذي يعدّ «قاعدة العلاج الصحيح من أمراض الهوى والعصبيات والاستكبار والإفساد. والجواب الصحيح على ما يلقاه العقل الإنساني رغم كل إنجازاته المادية من عناء وعنت وحيرة وفشل في تحقيق السلام والأمن والطمأنينة للنفوس والمجتمعات والأمم»[٣٦].

وجماعة التوحيد هي «جماعة التعارف والقسط والرحمة، والتي كان اتخاذها للهجرة النبوية ٦٢٢م تأريخًا لها عَلَمًا على ظهور التنظيم السياسي، فتحاور وتجاور في تجربتها التاريخية الاجتماع الإنساني مع الدولة. وقد كان أول الأنظمة ظهورًا في التعامل مع غير المسلمين هو نظام أهل الذِّمَّة الذي شمل المسيحيين واليهود في البداية استنادًا للقرآن، ولتجربة الرسول ﷺ والمسلمين في مجتمع الجزيرة العربية. وقد تجاوز نظام أهل ذِمَّة المسلمين التعارف والاعتراف، إلى ما يقرب من الأخوة، بحسب ما نص عليه القرآن. وقد اعتبر الفقهاء في كتبهم أهل الذِّمَّة من أهل دار الإسلام، وضمنت الدولة لهم الحرية الدينية المتضمّنة حرية العبادة، والتعليم الديني، والتنظيم الديني، وحرية الحركة الاجتماعية والاقتصادية»[٣٧].

وهذا المبدأ التوحيدي المؤطّر للعلوم والفكر والمعرفة في الإسلام؛ يقوم وينبني على ست ثوابت قيمية تدعو كلها إلى احترام الآخر، واعتراف بخصوصياته الدينية والثقافية والحضارية. والقيم الست التي تحكم علائق الأنا بالآخر تتمثَّل في: المساواة والكرامة والرحمة والعدالة والتعارف والخير العام. وتأتي عندنا هنا باعتبارها مداخل نظرية حاكمة ومحدّدات منهاجية في علم الاستغراب الإسلامي؛ ترسم حدود هذا العلم، وتضبط حركته وتوجّه مساره. الأخذ بها وتمثُّلها من طرف كل مستغرب يتيح أمامه فرص إعطاء القارئ العربي معرفة أفضل وأدق بالبلدان الغربية، ودرجة تطوُّرها، وتجعل من استغرابه أرقى في التفكير، وأنبل في الأهداف، وبها تتميَّز المعرفة الاستغرابية عن نظيرتها الاستشراقية. وبيان ذلك على النحو الآتي:

١ - المساواة

التي تستند إلى حقيقة «النفس الواحدة» التي خلقها الله، والتي تعني المساواة بين الناس من سائر الوجوه، ترتُّبًا على أنها تعني أنهم جميعًا مخلوقات لله. وهذا يقتضي من جانب المؤمن -نظرًا وعملًا- الابتعاد عن التمييز، والابتعاد عن الكبرياء، واعتبار حصول

(٣٥) إسماعيل راجي الفاروقي، نحن والغرب، تونس: دار الزيتونة، ط الأولى، ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، ص١٨.
(٣٦) عبد الحميد أبو سليمان، أزمة العقل المسلم، م.س، ص ١٢٨ بتصرف يسير.
(٣٧) رضوان السيد، التعدد والتسامح والاعتراف: نظرة في الثوابت والفهم والتجربة التاريخية، مجلة التسامح، سلطنة عمان: وزارة الأوقاف، السنة الثالثة، العدد الثاني عشر، خريف، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م، ص١٤.

الأمرين كبائر فظيعة، قد تُوصل إلى الكفر والفساد والإفساد إن صارت قيمًا أو مبادئ في النظر، وليس مجرَّد سلوكات مخطئة»[٣٨].

وفي إقرار القرآن لمبدأ المساواة بهذا الشكل؛ إلغاء لكل عوامل التفرقة بين الناس، فاللون والجنس والمعتقد والحظوة الاجتماعية لا مكان لها في منطق القرآن، ولا تؤثّر في إنسانية الإنسان، فبموجب هذا المبدأ يتوجَّب على المسلم التقيُّد بضوابط وقيم القرآن السامية في تعامله مع غيره من أتباع الأديان الأخرى، فلا يُحقِّره ولا يعتدي عليه في ماله أو بدنه أو عرضه، ولا يظلمه، قال ﷺ: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه حقًّا أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه (خصمه) يوم القيامة»[٣٩].

٢- الكرامة

تتَّصل قيمة الكرامة بقيمة المساواة بشكل وثيق، ذلك أن الكرامة -كما يعرضها القرآن- هي قيمة وجودية، تتعلَّق بفطرة الإنسان واختصاص الله له بالعقل والاستخلاف في العالم، وتسخير إمكانيات هذا العالم له، وإقداره على الولاية فيه[٤٠]. لقد كرَّم الله تعالى الإنسان، واعتبره الكائن المفضَّل على سائر المخلوقات ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾[٤١]. فالله ﷻ كرَّم بني آدم كلهم، ورزقهم من الطيبات وفضَّلهم على كثير ممَّن خلق تفضيلًا. و«التكريم هنا، هو تكريم مطلق المعنى، يشمل البشر كافة في الماضي والحاضر والمستقبل، ويمتد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالإنسان في نظر القرآن مكرَّم، بصرف النظر عن أصله وفصله ودينه وعقيدته، مركزه وقيمته في الهيئة الاجتماعية، فقد خلقه الله مكرَّمًا، ولا يملك أحد أن يُجرِّده من كرامته التي أودعها في جِبلَّته وجعلها من فطرته وطبيعته، يستوي في ذلك المسلم وغير المسلم من أهل الأديان الأخرى، فالكرامة البشرية حق مشاع يتمتَّع به الجميع من دون استثناء»[٤٢].

---

(٣٨) رضوان السيد، منظومة القيم والحياة الأخلاقية في الرؤية الإسلامية، مجلة التسامح، سلطنة عمان: وزارة الأوقاف، السنة السابعة، العدد الثامن والعشرون، خريف، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص١٣.

(٣٩) سنن أبي داود، كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات، رقم الحديث، ٣٠٥٢.

(٤٠) رضوان السيد، القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات، مجلة التفاهم، السنة التاسعة، العدد الثاني والثلاثون، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م، ص١٦.

(٤١) سورة الإسراء، الآية ٧٠.

(٤٢) عبد العزيز عثمان التويجري، الحوار من أجل التعايش، دار الشروق، ط الأولى، ١٤١٩/ ١٩٩٨م، ص ١٢٦-١٢٧ بتصرف يسير.

٣- الرحمة

في القرآن الكريم أن الله سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وجعلها القيمة العليا في تعامل البشر بعضهم مع بعض، وهذا يعني أن الرحمة والنعمة من جانب الله تجاه الإنسان تنعكسان علاقات مودَّة ورحمة وسكينة في التعامل بين البشر، أو ينبغي أن يكون الأمر كذلك. بل إن القرآن يعدّ النبي والإسلام رحمة للناس ينبغي أن تتجلَّى في حياتهم جميعًا(٤٣). ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾(٤٤).

لذا يجعل القرآن الكريم «الرحمة» هي الصبغة العامة في تعامل أهل دار الإسلام مع الآخر، فالله ﷻ ما يلبث يؤكِّد في قرآنه وجوب اصطباغ أسلوب التعامل مع الآخر بالرحمة الإلهية، فـ«الأصل أن الموجودات على اختلافها، يرحم بعضها بعضًا، تخلُّقًا باسم الرحمن من أسمائه تعالى»(٤٥). ولأن الله ﷻ رب المخلوقات جميعها فرحمته شاملة لكل الناس، إذ لا تخص أناسًا دون سواهم، بل «إنه ما من شيء إلَّا وهو أثر من آثار الرحمة الإلهية»(٤٦) ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾(٤٧).

٤- التعارف

تتَّصل بقيمة الرحمة قيمة التعارف؛ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾(٤٨). وإذا كان المفسّرون المسلمون قديمًا، والمفكّرون حديثًا ما ألحقوا التعارف بالقيم الأخرى لاعتقادهم أنها نصيحة أو ندب لظهورها مرة واحدة، فإن القراءة الأعمق للقرآن تصل التعارف بالمعروف، وهو مفهوم يرد في القرآن مئات المرَّات. والرحمة من جانب الإنسان تجاه أخيه الإنسان قد تفهم بطريقة فردية، أما التعارف والمعروف، فلا يمكن فهمهما إلَّا بطريقة شاملة، أي: في العلاقات بين البشر على اختلاف أديانهم وثقافتهم وأخلاقهم. فالآيات القرآنية تفترض قواسم مشتركة أساسية تتمثَّل في المساواة والكرامة والمعروف أو التعارف، وهي القيم والمعاني التي ينبغي أن تسود

---

(٤٣) رضوان السيد، القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات، م.س، ص ١٧.
(٤٤) سورة الأنبياء، الآية ١٠٧.
(٤٥) طه عبد الرحمن، روح الحداثة: المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط الأولى، ٢٠٠٦م، ص ٢٤٤.
(٤٦) المصدر نفسه، ص ٢٤٦.
(٤٧) سورة الأعراف، الآية ١٥٦.
(٤٨) سورة الحجرات، الآية ١٣.

في العلاقات بين الأمم ذاتها[٤٩].

ومقصد العملية التعارفية القرآنية وغايتها الكبرى تحقيق الخيرات ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[٥٠] والخير مفهوم يتَّسم بالعمومية والشمولية تتطابق حدوده لدى رضوان السيد مع مفهوم المعروف. وحسبما يلحظ فإن «القرآن يدعو المسلمين للتنافس مع غيرهم في استباق الخيرات دونما تحديد لتلك الخيرات باعتبارها معروفة ومشتركة بين بني البشر ولا ينفرد بها المسلمون معرفةً وتحديدًا» ومن ثَمَّ فليس من حق المسلمين الانفراد بتحديد القيم التي يشاركون فيها البشرية، حيث إنهم ينفصلون بهذا عن بقية البشر وتتعملق لديهم أوهام الخصوصية[٥١].

٥- العدالة

أما قيمة العدالة فهي ظاهرة الحضور في الخطاب القرآني، وهي تعني الاستقامة في النظر والعمل، والاستقامة والتوازن في العلاقات بين الناس. والقرآن يقرّر أن الله سبحانه لا يريد ظلمًا للعباد، بيد أن قيمة العدل هي في الأعم الأغلب في العلاقات بين الأفراد، وفي العلاقات بين الأمم. وهي ضرورية حينما يتعلّق الأمر بالكرامة والحقوق، وتفهم في سياق المساواة والرحمة، والتعارف عندما يتعلّق الأمر بالأفراد أو العلاقات بين الأمم»[٥٢]، فتلازم السلام والعدل وثيق وترابط الأمن والقسط وطيد، فالعدل مفتاح السلام. إن ما يعرفه عالمنا من توتر وحروب ناجمة بالأساس عن غياب العدل، وحين نتأمل في هذا الارتباط بين السلام والعدل فلسفيًّا، نجد أن السلام كقيمة مطلقة لا يمكن في الواقع أن يقوم إلَّا على مبدأ العدل الذي يعدّ شرطًا لإخراج السلام من أزمته الحادة، فهو مفتاح للسلام الدائم.

٦- الخير العام

وخاتمة منظومة القيم القرآنية قيمة الخير العام، ومفرد الخير هو الأكثر ورودًا في القرآن بعد الرحمة والرحمن والرحيم، وهو يعني الأحسن والأجمل في التفكير والفعل والتصرّف. والملحوظ أن القرآن يجمع خير على خيرات عندما يتعلَّق الأمر بالعلاقات مع الأديان والأمم الأخرى: ﴿فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾. ومن الواضح أن هذه القيمة الكبرى تتعالق وتتشابك مع بقية أجزاء المنظومة مثل: الرحمة والتعارف والعدالة[٥٣].

---

(٤٩) رضوان السيد، القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات، م.س، ص١٨.
(٥٠) سورة البقرة، الآية ١٤٨.
(٥١) رضوان السيد، القرآن والتاريخ: الرؤية القرآنية في الأمم والحضارات، م.س، ص١٨.
(٥٢) المصدر نفسه، ص١٨.
(٥٣) المصدر نفسه، ص١٨.

إن انطلاق علم الاستغراب الإسلامي من هذه القيم وانبناءه عليها، يمثّل ضمانة حقيقية تحول دون نزوع هذا العلم نحو الفساد والتسلط والهيمنة والاستيلاء والسلب والإقصاء كما هو شأن المعرفة الاستشراقية(٥٤). وعليه فهذه القواسم المشتركة التي ذكرت وغيرها، هي

(٥٤) ليس المعرفة في جانبها الاستشراقي فحسب بل مختلف فروع المعرفة الغربية. فمن المعلوم أن العلم أعظم ما يمتاز به العالم الغربي والحضارة المعاصرة، حيث فرض الغرب نفسه على كل العالم، وعلى كل الحضارات الأخرى، كقوة مادية وفكرية لا يمكن الاستهانة بها أو إنكارها، بفضل علومه؛ ففيه حدثت الاكتشافات التقنية الكبرى التي غيرت وجه العالم: الطاقة البخارية، الطاقة الكهربائية، ووسائل المواصلات المختلفة: الدراجة النارية، السيارة، القطار، الطائرة، أدوات التواصل المختلفة، الهاتف، التلغراف، الإذاعة، التلفزة، الأقمار الاصطناعية، الأنترنيت. وهو الذي حقّق معجزة النزول على سطح القمر وارتياد الكواكب الأخرى، هذا ناهيك عن إنجازاته العسكرية الباهرة، وإنجازاته في مجال الطب والبيولوجيا وكذا إنجازاته في مجال العلوم الإنسانية والاجتماعية... أمام هذه الحقيقة، يواجهنا السؤال التالي: ما الذي يمكن أن يقدّمه الإسلام لحضارة الغرب، وهي حضارة علمية -لولاه ما بزغ نورها- أساسا؟

إن كان من شيء يقدّمه الإسلام لحضارة الغرب في هذا المجال، فهو على مستوى الإطار الإبستمولوجي الذي نشأت ضمنه العلوم الإنسانية والاجتماعية والطبيعية والتقنية... في العالم الغربي. فمعلوم أن العلوم في الغرب قد نشأت في خضوع تام لتصوّرات الغرب عن الإله والإنسان والحياة والطبيعة، ولتجربته مع الدين ولمسار علاقته ببقية المجتمعات الإنسانية وفي مقدمتها المجتمع العربي والإسلامي.

ونستطيع التعبير -بإجمال- عن الخلفية العقائدية المشتركة بين فروع المعرفة والثقافة الغربية، بقولنا: الوجود كله منحصر في الإنسان والطبيعة وهو جزء منها ونوع من أنواعها والطبيعة وجدت هكذا بنفسها وكذلك سننها أو قوانينها فهي مقدرة بنفسها من غير مقدر لها، والعقل وحده طريق معرفة الحقائق وليس ثمَّة طريق آخر، وليس المثل الأخلاقية والقيم والمفاهيم الحقوقية إلَّا وقائع أو حوادث كالحوادث الطبيعية نشأت وتطوَّرت، فهي ليست ثابتة، والإنسان نفسه إنما هو حيوان اجتماعي مفكّر فحسب، وليست النفس الإنسانية إلَّا مجموعة من الغرائز.

وكنتيجة لهذه الفلسفة التي تؤطّر العلوم في الغرب، ارتهن العلم عنده بما هو مادي، وبما هو واقع في التجربة الحسية، فمهما تكن النظرية العلمية ومهما يكن موضوعها، فما لم تكن قابلة للرد إلى ما هو واقع في التجربة الحسية، تجرّدت من عمليتها وأصبحت لغوًا... وكنتيجة لذلك، فقد عمل العلم في الغرب على التخلّص من النظريات العلمية التي لم تكن قائمة على أساس ملاحظات وتجارب دقيقة، عن طريق تحرير العقل من قيوده المتمثّلة في الأنساق المنطقية أو الأفكار الفلسفية القديمة.

ولعل أوجست كونت أبلغ من عبَّر عن هذا التوجه بقوله: إن العلوم الوضعية التي يجب أن تحتكر وتستأثر بدراسة الظواهر كافة، الطبيعية والعقلية والاجتماعية بمناهج تجريبية محضة هي وحدها الجديرة بأن تسمَّى علومًا، وعلى نحو مقابل فإن الفلسفة لا تعدو أن تكون تأمُّلات مجرَّدة، أما الدين فخرافة وشعوذة.

وبهذا تخلَّص العلم في الغرب من كل جانب روحي ومعنوي في الإنسان والكون برمَّته، فارتبطت نتائج العلم وثمراته بأسبابها الفاعلة مقدماتٍ وعللًا، وألغت الجانب الغائي والمقاصدي والقيمي بدعوى أنه: «لا علم إلا بالبرهنة والتجريب». فحلَّت النزعة العلمية المعتمدة على العقل البشري محل الدين، فتم فصل العلم عن المبادئ والقيم الدينية وعدم الاعتراف بصلاحية الدين، أي دين لتوجيه العملية التعليمية وإرشادها، وذلك انطلاقًا من المبدأ المعكوس الذي يفترض وجود صراع مرير بين الديني والعلمي، ومن ثَمَّ لا يمكن أن يجتمعا في شيء واحد في آن واحد، فذكر الديني في البحث العلمي، إفساد للروح

العلمية ومدعاة إلى طرح جميع النتائج التي توصل إليها، لذلك فإنه لا بد من إقصاء الديني عن العلمي، ولا حاجة إلى التعرُّض للقيم التي ينبغي ترسيخها في عقول النشء قبل أن يكبروا. وفصل الأخلاق على هذا النحو هو فصل مقبول كل القبول في مجال العلم... إنه من المتعذّر وجود... أخلاق علمية. ويجد هذا الفصل مبرّره في نظر علماء الغرب تحت حجة أن العلم يهدف إلى السيطرة والتحكم في الطبيعة، وتحقيق سيادة الإنسان عليها. وهذا هدف إن أخذ بما هو أخلاقي لن يتحقَّق، فكان بذلك ضرورة الفصل بين العلم والأخلاق، والاعتراف فقط بما يحقق النفع الموصل إلى تحقيق الهدف المنشود.

بناء عليه فالإطار الإبستمولوجي للعلم في الغرب بني في جملته على الأساس المادي الذي لا يعترف إلَّا بما هو قابل للبرهنة والتجربة، كما لا يعترف بتأثير الأخلاق في العلم ولا في التقنية. وقد حقَّق «العلم الغربي» نتيجة لذلك نتائج باهرة على المستوى المادي، أفادت الإنسانية، وحلت معضلات بشرية كانت من قبيل المستحيلات... نجاح الغرب العلمي وتفوُّقه فيه... أدَّى بالغرب إلى الاعتداد بالعلم في صفته المادية، والاغترار بقدراته على اختراق المجهول وتحطيم الحواجز... ليصحب البعد المعرفي في العلم الغربي بعد الهيمنة والسيطرة «فالعلم القاعدة التحتية لقوة الغرب قد ارتبط منذ البداية بالسيطرة داخليًّا وخارجيًّا كما تعبِّر عن ذلك قولة بيكون: العلم قوة أو قدرة «Savoir c'est pouvoir».

بُعد الهيمنة والسيطرة دفع الغرب إلى توجيه العلم نحو مسار تحفه الأخطار والأهوال من كل جانب... لما أصبح العلم يشكّله من خطر على البشرية جمعاء نتيجة تحويله للإنسان إلى رخاء لا قيمة له. ولعل أبرز الميادين العلمية، التي تدل على خطورة المأزق الذي وصل إليه العلم في الغرب:

ميدان العلوم البيولوجية وخاصة موضوعة الاستنساخ التي حوَّلت الإنسان إلى مجرَّد سلعة خاضعة للعرض والطلب تسري عليها أهواء العلماء وتتحكَّم فيها مختبراتهم، الأمر الذي جعل نتائج البحث العلمي تستعمل لأغراض مادية وسياسية صرفة وليست إنسانية.

ميدان العلوم العسكرية، وما يرتبط بها من صناعة للأسلحة الفتَّاكة، كالأسلحة النووية، والقنابل الذرية والهيدروجينية... التي تهدّد حياة الإنسان، والكوكب الذي يعيش فيه.

ينضاف إلى هذه الأخطار، فشل «العلم الغربي» الذريع في معالجة المشكلات الاجتماعية الجديدة والمتفاقمة التي تمرُّ بها المجتمعات المعاصرة. فمع كل ما حقّقه العلم، إلَّا أنه لا يستطيع أن يحقّق كل شيء للإنسان ولا يمكن أن يعوّض الإنسان عن القيم والأخلاق، وليس هناك ما يعوّض الإنسان عن القيم والأخلاق إلَّا القيم والأخلاق نفسها. وأكبر خطأ كان له أكبر ضرر، حينما وضع الغرب، العلم في نزاع مع القيم أو الدين، لأن العلم لا يكون بديلًا عن الدين والقيم، ولا القيم يمكن أن تكون بديلًا عن العلم، وليس بينهما أي تضاد أو تناقض... فالخطأ في الفكر والفلسفة التي لم تستطع أن توازن ما بين العلم والقيم وما بينهما من تكامل، وحاولت أن تعالج هذه الإشكالية بمنظار الحداثة بالفصل بينهما، بين حقبتين زمنيتين، حقبة سابقة، وحقبة لاحقة، وبينهما صراع القديم والجديد، فكان من المؤكد أن يكون الانتصار للجديد الذي يفترض فيه أن يلغي القديم ولا يتوافق معه. وكان لهذا الصدام أثره الخطير في انهيار القيم وانحسارها داخل المجتمعات الغربية، فقد أثرت بطريقة سلبية على نظرة الفرد إلى ذاته وعلاقاته بالناس والمجتمع من حوله، كما أثرت على واقع الأسرة والروابط العائلية، وبدأنا نلمس الشعور المتزايد بالقلق في الغرب من جراء تراجع القيم.

يصرّح ألكسيس كاريل في كتابه: «الإنسان ذلك المجهول» الذي تزداد قيمته الأخلاقية والعملية كلما ازدادت البشرية مكابدة وتلظِّيًا بويلات تسلُّط الحضارة المادية الصناعية على الوجود... يقول كاريل: إن الحضارة العصرية لا تلائم الإنسان كإنسان... وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلَّا أنها غير صالحة... إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيًّا وعقليًّا... إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة ذروة النمو والتقدُّم، هي

بمثابة أرضية ثابتة، يمكن البناء عليها من أجل علم استغراب إسلامي غير متحيِّز.

إن المعرفة الاستغرابية الإسلامية لا بد أن تتحقَّق وتجري في ضوء هذه القيم المسدّدة بمنأى عن الهوى أو التعصُّب، حتى نحفظ لعلم الاستغراب أصالته وجدّيته ونبعده عن مخاطر العبثية والجهالة التي ارتكس إليها غالبية المستشرقين ودعاة التغريب، أو الاستغراب المقلوب على حدّ تعبير حنفي(٥٥).

لهذا نسعى في علم الاستغراب الإسلامي نحو الانتقال بالدراسة البحثية من عناصر القبول والرفض النابعين من الحب والكراهية إلى عناصر التعامل وفق قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾(٥٦). فالموقف المعرفي والمنهجي يقتضي التعامل مع موضوع «الاستغراب» ضمن سياق العدل القرآني. والعدل ليس مجرّد موقف مفيد للغير، ولكنه مفيد للذات في التعرُّف إلى الموضوع أو الإشكال بحجمه الحقيقي، فاتخاذ موقف العدل «اعدلوا» هو المحقّق لأمارات العدل مع الآخرين وتقويم عوالمهم المختلفة (عالم الأفكار والأشخاص والأشياء والأحداث، والعلاقات والمؤسسات..) والمحقق للفاعلية الذاتية تفكيرًا وتدبيرًا وتغييرًا وتأثيرًا(٥٧).

الآخذة في الضعف، والتي ستكون عودتها إلى الهمجية والوحشية أسرع من سواها... إن العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن حالة الإنسان الراهنة، وإنما نحن المسؤولون، لأننا لم نُميِّز بين الممنوع والمشروع... يجب علينا أن نعيد إنشاء الإنسان من جديد في تمام شخصيته، الإنسان الذي أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها.

وهكذا نرى أن الإنسان المعاصر يتطلَّع إلى مناهج معرفية جديدة بديلة عن المناهج المعرفية الغربية، تمكِّن من معالجة الإنسان كإنسان آدمي، له خصوصياته التي تميِّزه عن الطبيعة، والمخلوقات الأخرى... ونحن نعتقد أن النظام المعرفي الإسلامي المسدّد بقيم وأخلاق الوحي قادر على الاضطلاع بهذه المهمَّة. فهل نحن في مستوى تقديم معالم هذا النظام في أحسن صورة؟. انظر: محمد الناصري، العلاقة مع الآخر في ضوء الأخلاق القرآنية، بيروت: دار الهادي، ط الأولى، ٢٠٠٩م.

(٥٥) حيث يشير حسن حنفي إلى أنه ظهر في جيلنا استغراب مقلوب، بدلًا من أن يرى المفكّر والباحث صورة الآخر في ذهنه رأى صورته في ذهن الآخر، بدل أن يرى الآخر في مرآة الأنا رأى الأنا في مرآة الآخر. وعيوب هذا الاستغراب المعكوس كثيرة، منها: قراءة التراث الإسلامي، تراث الأنا، كله من منظور المذهب الغربي الجزئي، وتأويل الكل الأصيل من منظور الجزء الدخيل ممَّا يطمس خصوصية التراث المقروء. ومن ثَمَّ يصبح التراث الغربي هو الإطار المرجعي لكل قراءة لتراث آخر، وجعل المركز هو المقياس، والأطراف هي المقيس، وبالتالي تضيع هوية المقيس، ومن ثَمَّ تضيع هوية الأطراف التي يتم إحالتها باستمرار إلى المركز. وعلم الاستغراب إنما يهدف إلى تغيير علاقة المركز بالأطراف حتى تتعدَّد المراكز، وتتباين النماذج حتى يتم الحوار بين أنداد. ص ٩٧.

(٥٦) سورة المائدة، الآية ٨.

(٥٧) سيف الدين عبد الفتاح، العولمة والإسلام: رؤيتان للعالم، دمشق: دار الفكر، ط الأولى، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٤٤.

□ رابعًا: عود على بدء

من المهم جدًّا أن نؤكّد أن دراسة مفهوم «الاستغراب» لا تستوعبها محاولة مثل هذه، ولكن غاية أمر هذه المحاولة أن تحدّد الشكل الذي يجب أن تقوم عليه الدراسة؛ معرفيًّا ومنهجيًّا لما يثيره مفهوم الاستغراب من إشكالات جوهرية.

ومن هنا فإن التعرُّض المعرفي والمنهجي نراه من الجوانب التي لم تكن أساسية في الخطاب العربي والإسلامي حول الغرب، بل اتَّجهت توجّهات الخطاب نحو المواقف مباشرة، دون الاهتمام بالجانب المعرفي والمنهجي. والنتيجة المؤسفة، بسبب أسبقية الموقف عن المنهج، ضياع المعرفة الحقة بالغرب وتفويت فرص التعايش والتواصل والتعاون بين الذات والآخر. فالعالم الإسلامي يواجه فقر على المستوى التنظير المعرفي والمنهجي، ممَّا جعل الموقف المتخذ من الغرب قاصرًا على الانفعال تارة والتهوين أو التهويل تارة أخرى، بدلًا من أن يكون مبنيًّا على أسس معرفية ومنهجية.

إن معرفة الغرب تتطلَّب مواجهة بما تتطلَّبه من تحدّيات من جنس حركة الغرب وتصوُّراته نفسه، والقضية ليست في تسجيل المواقف أو تبنِّي توجُّه بعينه. وإنما القضية تكمن في مدى قدرتنا على بلورة نظرية معرفة تسهم في إرساء قواعد فهم جديدة للأسس والتصوُّرات التي يقوم عليها العقل الغربي. كما تمكّن من إنشاء سياق جديد من التواصل الحضاري مع الغرب تنتفي فيه مفاهيم الغلبة والتبعية والإكراه.

ومثل هذا السياق يستلزم في تقديرنا كما بيَّنَّا آنفًا إجراء تحويل جوهري يُفضي إلى تفكيك أواصر التبعية المعرفية للغرب ومناظرته وفق مبادئ العدل والرحمة والتسامح وحب الخير... أي أن يتجاوز مسار الاستغراب الذي نتوخَّاه مسارات الاستتباع الفكري التي لا نزال نعيش تداعياتها السالبة على امتداد خمسة قرون خلت من ولادة الحداثة من جهة[٥٨]، وتجاوز مناهج المعرفة الاستشراقية النازعة نحو الهيمنة والإقصاء من جهة ثانية.

لهذا فالعالم العربي والإسلامي بحاجة إلى خطاب استغراب، ينطلق من الذات بمراعاة قيم الذات، لفهم ذاتنا أولًا في علاقتها بالآخر فهمًا يقوم على الانفتاح والتفاعل مع هذا الآخر. أملًا في تجاوز حالات العداء التي تميّز العلاقة بين المجتمعات المعاصرة.

---

(٥٨) محمود حيدر، م.س، ص ١٠.

116
29th year
Summer 2022 Ad/ 1444 Hg

Published by:
Al-Kalemah
Forum for
Studies &
Researches

AL-KALEMAH

A Qurterly Magazine Specializes in Islamis Thoughts, Current Issues and civilization Rebival

سعر العدد

» لبنان ٣٠٠٠ ل.ل	» سوريا ٦٠ ل.س
» الأردن دينار ونصف	» مصر ٧ جنيهات
» الكويت دينار ونصف	» السعودية ١٥ ريالاً
» البحرين دينار ونصف	» الإمارات العربية ١٥ درهماً
» عمان ريال ونصف	» قطر ١٥ ريالاً
» العراق دينار ونصف	» اليمن ١٧٥ ريالاً
» السودان ٧٥ ديناراً	» ليبيا دينار ونصف
» تونس دينار ونصف	» المغرب ٢٢ درهماً
» موريتانيا ١٥٠ أوقية	» بريطانيا ٢,٥٠ جنيه
» فرنسا ٣٠ فرنكاً	» ألمانيا ١٠ ماركات
» سويسرا ١٠ فرنكات	» هولندا ١٠ فلورن
» أيطاليا ٥٠٠٠ ليرة	» أمريكا ٥ دولارات
» كندا ٥ دولارات	
» استراليا ٦ دولارات	

» الدول الأفريقية ٤ دولارات.
» الدول الأوربية والأمريكية الأخرى ٥ دولارات.

موقعنا على الإنترنت: www.kalema.net